الفصل السابع عشر

خيانة الأوطان

كنا نود لو نستطيع تنزيه هذا الكتاب عن ذكر خيانة الوطن كي لا يكون لهذه الفظاعة ذكر في أنديتنا الشرقية، ومحافلنا العربية. ولكن ما نشعر به من قبح هذه الجريمة ونشهده من إنكار الشرقيين للوطن، والوطنية اضطرنا إلى الإيماء إليها ولو علي سبيل الفكاهة والهزل؛ ليعلم الذين يخونون الوطن أنهم بما يعملون يحاسبون، والجزاء الحق من جنس العمل.

وقد سبق لنا القول في الفصل المتقدم أن خيانة الأوطان ليست فقط بيع الوطن للأجنبي وتسليم البلاد للغريب، ولكن كل تقصير في خدمة الوطن، وإهمال للواجب العام يحسبان من قبيل الخيانة للبلاد. ونحن لا نحاول أن نفصل في هذا الباب كل ما كانت له علاقة بهذا الموضوع، بل نحن نجتزي علي إيراد حكاية "لثعلبة" رواها عن محاكمة رجل خان الوطن، وأخلف رجاء فيه بزوغ الشقاق بين أهله، وتفريق كلمة الوطنيين، وتبديد جامعتهم، وهي أقبح خيانة للوطن، وأفظع طريقة تتبع للإضرار به.

وغني عن البيان أن هذه الحكاية إنما هي رمز مجازي لا نقصد به إلا إلى تمثيل فظاعة الخيانة وبيان قبحها بأسلوب ينطبع في مخيلة القارئ، فليست هي إذا حقيقة واقعة يشار بها إلى شخص معين، أو يقصد بها أحد من الناس.

هذا ويروي أن رجلا غشى مجلسا لقوم بينهم رجل موثق الأكتاف، وهم يتشاورون في أية ميتة يميتونه، وكان أجحدهم يقول عند وصول الرجل نربطه إلى

ذنب فري جموح ونطلقه في الطرق والشعاب الوعرة. فقال الرجل: وأي ذنب جنى حتى يقتل هذه القتلة الشنيعة؟ فهل سرق أرملة، أو يتيما؟ قالوا بل جنايته أعظم مما تقول، قال: فهل كفر بالله، أو غدر بجاره، أو خالف الناموس؟ قالوا: بل ذنبه أجسم من ذلك. قال: فهل قتل أباه، أو أمه، أو أخاه. قالوا: إن وزره فوق هذا الوزر، فلقد خان هذا اللئيم الوطن. قال: إذا فاقتلوه شر قتله، ومثلوا به تمثيلا شنيعا، وإذا كان مفتاح جهنم في يدكم فزجوه في أعمق دركاتها.

ولسنا نبالغ إذ قلنا أن خيانة الوطن أفظع جناية يجنيها الإنسان في حياته، وهي وحدها الذنب الذي لا يغتفر، ووصمة العار التي لا تزول ولا تمحى.

ونحن موردون الآن حكاية "ثعلبة"، فيري القارئ أن موقف المحاكمة علي خيانة الوطن رهيب، وأن القصاص صارم شديد. قال:

خرجت مرة استنشق هواء المساء وقد ترصع بساط السماء، فقادتني رجلاي إلى ضفة النيل، فاقمت ساعة أتفرس في الأشياء فأراها تتغير رويدا رويدا، فكأن ذلك الموضع قد ارتفع وعلا حتى أصبح جبلا شامخا وأنا جالس علي قمته. ثم لم أشعر إلا وقد زلزلت الأرض زلزالها، وعصفت الريح، ولمع البرق، وهزم الرعد، واستولي على الدنيا ضباب، كثيف وما مضى علي ذلك برهة حتى انقشع الضباب وسكت الرعد وانقطع البرق وسكنت الريح وهدأ الزلزال واستولي علي المكان صمت هائل. كل ذلك والجبل راسخ لا يتزعزع وأنا واقف علي قمته، وقد جمد الدم في عروقي وأخذتني الرعبة. علي أن الصمت لم يكد يستتب حتى تلاه دوي طبق أقطار الدنيا الأربعة كأنما "تداول سمع المرء أنمله العشر" حتى خيل لي أن قد نفخ في البوق، وقامت القيامة، فاستعذت بالله من هول الموقف في اليوم الأخير.

ورأيت كأن شعلة من النور تتلهب في ذلك الفضاء وهي تدنو مني بين

ذلك الدوى حتى وقف أمامي فأنقطع الضجيج بغتة، وخرج من الشعلة صوت كالرعد القاصف صارخا في تلك البرية "أعدوا طريق الوطنية". أما أنا فكنت لا أجسر أن أبدئ حراكا، وكنت أسمع ولا أري للصوت مصدرا، فهالني الأمر ولعنت في نفسي الساعة التي خرجت فيها إلى ذلك المكان علي أنني لم أتم الفكر حتى خاطبني الصوت من داخل اللهيب فقال: استغفر الله يا ثعلبة عما تجدف به، فإن الوطن قد اختارك من بين الرواة، واصطفاك لأن تري ما لم يره ولن يراه سواك. وأعلم أن الموقف موقف محاكمة وستر لواء العداء والمساواة منشورا منصورا، وجيش الظلم والاستبداد مكسورا مدحورا، فتنبه إلى ما سيجري وكن شاهدا عدلا. وما سكت الصوت حتى رأيت رجلا قبيح الوجه، شديد السمرة، صغير العينين، رقيق الجثة، وعلي رأسه عمامة وهو مرتد بجبة طويلة تتدلي إلى عقبية، وكان يمشي علي غير هدي كأن يدا غير منظورة تقوده بالرغم عنه. فأمعنت في النظر إليه فإذا هو رجل ولع بإيقاع النفرة بين مواطنيه، وتهييج الخواطر، وتفريق الكلمة .فكان معززا لدعائم البغي والفساد، مقوضا لأركان العدل والإصلاح، فأشفقت عليه من عدل القضاء، وفكرت في أن أشفع فيه لدى الديان، ولكنني خفت أن أكون شفيع المفسدين فتلحقني من العار وصمة لا أريدها. ومع ذلك فإنني كنت علي يقين بأن شفاعتي لا تفيد في ذلك الموقف فأضربت عنها.

ثم صاح الصوت بالرجل صيحة ارتجت لها أقطار العالم. فقال الآن يأخذ العدل مجراه فأستعد أيها المجرم لتأدية الحساب... وما كان إلا كلمح البصر حتى أحدقت بالتعيس أشباح مخيفة زادت الموقف هولا، وأوقعت الرعب في نفس الرجل، فارتخت مفاصله، وكاد لولا أن يتداركه شبح من الأشباح يسقط إلى الأرض. ثم بدئ بمحاكمته فكانت محاكمة قانونية عادلة؛ إذ بسط له الصوت ما

أتاه من المساوئ والجرائم في تفريق كلمة الوطنيين إرضاء للغاية الخسيسة، وقيادتهم إلى ما بعث بمصلحة البلاد خدمة لبعض الأنفس الخبيثة، وكلفه عن ذلك عذرا صحيحا فلا يستطع إليه سبيلا، فحكم عليه وسحبه، وقال: صارت النار لك مقيلا. فبكي الشقي وقال ندمت ولكن لات ساعة مندم، وما تبرد الندامة بعد الفوات غليلا. وعقيب ذلك أمر الصوت بالرجل فسيق مكبلا مغلولا. ورأيت فوق رأسه سيفا من اللهيب مجردا مسلولا. فعلمت أن قد وقع القضاء وصار الخلاص مستحيلا. وقضى الله أمرا كان مفعولا.

قال ثعلبة: فلما رأيت ذلك اعتراني الذهول، واستولت علي الهواجس، وتوغلت في التأمل والتبصير، ورجعت إلى ماضي أعمالى فرأيت ذاتي نزيها في الخدمة بريئا، فهنأت نفسي وقلت لها لا تحفلي بما يقوله الناس فأنت في خدمة الوطن مخلصة، ولسوف تعرفين وتكافئين. وكأن مخاطبتي لنفسي أنستني ذلك الموقف فلم أعد أنظر إلا إلى داخلي وضميري، ولكن صوت الشعلة أخرجني من ذهولي؛ إذ هتف بي قائلا لقد رأيت بعينيك وسمعت بأذنيك كيف يصرع البغي صاحبه، وكيف تقوم القيامة وينتصب الميزان لمحاكمة من يسعي في تفريق قلوب الأخوان، ويدأب طمعا في مصلحة نفسه علي الإضرار بمصلحة الأوطان. ومن العبث أن يتصور المفسد أن حاميا يحميه، وأن يدا قوية تنقذه من عقاب الوطن. فأذهب عني إلى القوم نذيرا فإن أحسنوا فلأنفسهم، وأن أساؤا فعليها. وأنا صوت الوطن أحب من يحبني وأكافئه، وابغض الصادقين بحسن الثواب، ومنذرا للمخالفين بهول العقاب. ثم سكت وعد الدوي، وأخذت الشعلة بالابتعاد وأنا أنتبعها النظر حتى توارت عن بصري، وحينئذ ارتجت الأرض فزلزلت زلزالها، وهزم الرعد ولمع البرق وعصفت الريح ثم عاد كل شيء بغتة إلى السكون، فلم أشعر إلا وأنا علي الأرض وقد غار الجبل ورجعت

الأحوال إلى مجاريها.

فلما رأيت ذلك أيقنت أن الصدق في خدمة الوطن أولي من كل ذهب الأرض، وأن للوطن ملاكا يراقب أعمال الناس ويكلف كلا منهم حسابا، فمن أحسن فللثواب، ومن أساء فللعقاب. ولقد جئتكم باسم الوطن فلا تخالفوا له أمرا، ولا تعصوا له إرادة، بل قولوا جميعكم سمعا وطاعة للآتي باسم الوطن...